الثورة على الوالي

لقد وصف الجبرتي رحمه الله لقاء المشايخ بمحمد علي في كتابه عجائب الآثار، حيث كتب ما يلي: فلما أصبحوا يوم الاثنين، اجتمعوا ببيت القاضي، وكذلك اجتمع كثيرٌ من العامة، فمنعوهم من الدخول إلى بيت القاضي، وقفلوا بابيه وحضر إليهم أيضًا سعيد آغا والجماعة، وركبوا جميعًا وذهبوا إلى محمد علي، وقالوا له إنا لا نريد هذا الباشا حاكمًا علينا، ولا بد من عزله من الولاية، فقال ومن تريدونه يكون واليًا، قالوا له لا نرضى إلا بك وتكون واليًا علينا بشروطنا؛ لِما نتوسمه فيك من العدالة والخير فامتنع أولًا، ثم رضي وأحضروا له كركًا وعليه قفطان، وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوي فألبساه إياه، وذلك وقت العصر، ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة، وأرسلوا إلى أحمد خورشيد باشا الخبر بذلك، فقال:

- إني مولًى من طرف السلطان، فلا أُعزل بأمر الفلاحين!

ويتضح من رواية الجبرتي أن خورشيد باشا قد رفض مطالب الشعب، بل وتحدى إرادته؛ مما أثار غضب العلماء فقرروا خلعه بالقوة، واستعدوا لحصار القلعة تمهيدًا لاقتحامها، وهكذا اندلعت الثورة التي كان يخطط لها محمد علي باشا ويترقبها بشغف محمد بك لاظ، ويدوّن أحداثها الشيخ الجبرتي:

وأخذ الوالي يحصن القلعة ويتزود من الميرة والذخيرة، ويستعد للقتال لإخضاع المدينة وإخماد الثورة، وأخذ زعماء الشعب يعدون الوسائل لإجبار خورشيد باشا على التسليم، فدعوا الأهالي إلى حمل السلاح، واحتشد الثائرون في ميدان الأزبكية حتى ملئوه، وعزم الزعماء أن يعيدوا إبلاغ الوالي قرارهم ويطلبوا منه احترامه منعا للفتنة وحقنا للدماء.

فبعثوا برسالة إلى عمر بك وصالح قوش وهم من رجال الوالي يذكرون فيها" ما اجتمع عليه رأي الجمهور من عزل الباشا، وأنه لا ينبغي مخالفتهم لما يترتب على ذلك من الفساد العظيم وخراب الإقليم، فأرسل عمر بك وزميله يطلبان سندا شرعيا ومثبتا لعزله، فاجتمع الزعماء في يوم الخميس ١٦ مايو ١٨٠٥ م ١٦ صفر ١٢٢٠ ه" بدار المحكمة" بيت القاضي، وحرروا محضرا في شكل سؤال وجواب على نحو الفتاوى التي كانت تصدر بخلع السلاطين في الأستانة ووقعوا على المحضر، وقد جاء بالمحضر:

" إن للشعوب، طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية، الحق في أن يقيموا الولاة، ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم؛ لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة."

واستمر الوالي على عناده، فأخذ السيد عمر مكرم يحرض الناس على القتال، ولبى الأهالي الدعوة متطوعين حاملين ما وصلت إليهم أيديهم من الأسلحة والعصي، وأقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة

ووقفوا بها، وحمل السلاح كل قادر على حمله، وخلت مخازن الأسلحة مما فيها من آلات الكفاح، واشتركت جميع طوائف الشعب على اختلاف أعمارهم ومراكزهم، وبلغ عدد الثوار ٤٠ ألفا حاملين الأسلحة والعصي، وكان الفقراء من العامة يبيعون ملابسهم أو يستدينون ويشترون الأسلحة. وأرسل خورشيد باشا صالح قوش إلى القاضي، فشق طريقه إليه بصعوبة وسط الحشود الغاضبة، محاولًا التخفي قدر الإمكان لتفادي بطش الثوار به والتقى به وخاطبه قائلًا:

– إن الباشا يطلب الرواتب المتأخرة لجنوده، وبقاؤه في القلعة ليس فيه ضرر على الرعية.

فأجابه القاضي:

– قل للباشا: إن إقامتكم بالقلعة هي عين الضرر، فإنه حضر يوم تاريخه نحو الأربعين ألف نفس بالمحكمة، طالبين نزولكم أو محاربتكم، فلا يمكننا منع قيام هذا الجمهور، وقل له أيضًا أن هذه آخر المراسلات بيننا وبينكم والسلام.

ويحاول خورشيد باشا مرة أخرى بعد فشل مهمة صالح قوش، ويرسل عمر بك أحد مستشاريه ليلتقي بقائد الثورة السيد عمر مكرم الذي أعطاه الأمان من الثوار ليتمكن من الحضور إليه، ويلتقي الرجلان ويدور بينهما الحوار التالي:

قال عمر بك:

- يقول خورشيد باشا:" كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم؛ وقد قال الله تعالى أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ؟

فأجابه عمر مكرم على الفور:

- أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا رجل ظالم وقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة، وهذا شيء مألوف من زمان، حتى الخليفة والسلطان إذا سار في الناس بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه..

- تحاصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا؟ أنحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك؟

- قد أفتى العلماء والقاضي بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة.

إذن فإن هذه الثورة لم تكن مهزومة أمام التفسير القائل بطاعة أولي الأمر، لقد كانت ثورة تملك روحا منتصرة، لأن عمر مكرم زعيم الثورة قد حسم المسألة بكلمات بسيطة حول أن أولي الأمر هم العلماء، وحملة الشريعة والسلطان العادل، وأن من حق الأمة أن تعزل الحكام الظالمين وليس الكافرين فقط، وأن ذلك الحق يطال الوالي والخليفة والسلطان.

ثم إن السيد عمر مكرم قد حسم قضية جواز قتال الحكام الظالمين، حين رد على عمر بك قائلا:

لقد أفتى العلماء بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة. وإذا كان هذا الوعي الفذ يعبر عن روح الثورة، فإنه أيضا يعبر عن روح العصر الذي سادت فيه هذه المفاهيم، وعن نوعية علماء الدين الذين كانوا يقودونه. لقد أيقن خورشيد باشا بعد عودة رسله برد زعماء الشعب، أن القضاء على هذه الثورة لن يكون سهلًا، وخاصة أنها بقيادة العلماء، ويقف خلفها محمد علي بكل ثقله، أو هكذا كان يعتقد الوالي المحاصر في القلعة. أما لاظ بك، فكان يدرك عبقرية سيده التي تتمثل في لعبه الدور المزدوج للمشارك في الأحداث والمتفرج عليها، فكمشارك وفاعل، كان يحرك ويتآمر ويغير من سيناريو الأحداث، وكمتفرج كان يترك المشاركين يمزقون بعضهم بعضًا، ليستفيد من ذلك في الوقت المناسب، وقد ترك محمد علي للسيد عمر مكرم حرية التصرف في حصار القلعة وتجويع سكانها، وإطلاق النار عليها من المدافع التي تيسرت للثوار، فكان زعيم الثورة بلا منازع، وعندما رفض الجنود الألبان الاشتراك في القتال إلا بعد حصولهم على النفقات، تم استعواضهم بواسطة الشعب نفسه، ويشتعل الموقف ويتأزم ومع مرور الوقت الذي طال دون حسم أحد طرفي الصراع للقتال، تصل الأخبار إلى الباب العالي بما يحدث في مصر، وتصله أيضًا رسالة زعماء الشعب، فيقوم السلطان بإرسال مبعوث خاص ليقف على ما يحدث عن قرب.